

تاريخ بدايات شروح المعلقات - شرح ابن الأنباري أنموذجا

The history of the beginnings of commentaries
on the Mu'allaqat - Ibn al-Anbari's commentary as an example

د. بن بكريتي آلاء فاطمة الزهرة*

جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس، (الجزائر)

alaab250788@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/04/01

تاريخ الاستلام: 2025/11/11

ملخص:

حام هذا المقال وبشكل خاطف حول شروح المعلقات، فأشار إلى تاريخ بداياتها، دون أن يُغفل بثَّ قبساتٍ يسيرة من شرح ابن الأنباري، محاولا الجمع بين التنظير والتطبيق، فبدأ الحديث بتعريف للمعلقات ثم الولوج إلى تاريخ شرحها مع عرض بعض الأسماء الشارحة، ثم قَرَّب القارئ من فئة الشراح العلمية (اللغويون)، بعدها تحوَّل إلى شرح ابن الأنباري مع عرض نماذج تطبيقية منه ترشد القارئ وتُبيِّن بهذا الشرح المهم تحت عنوانين رئيسيين هما: فضاء الدلالة، وفضاء البناء اللغوي، تتفرع عنهما عناوين ثانوية، لنيسر النفاذ إلى المعنى والمبنى. وما قام به المقال جزء ضئيل يفتقد التفصيل والإحاطة، إذ القصد منه إضاءة جانبٍ في النقد العربي القديم توجب على النخبة من الباحثين في ميدان الأدب والعلوم الإنسانية، طلبة وأساتذة الالتفات إليه، ليكشفوا عن الأصالة والتبعية، والتقليد والتجديد والاستئناف والتكرار.

الكلمات المفتاح: الشروح؛ المعلقات؛ التاريخ؛ ابن الأنباري؛ الفضاء الدلالي.

Abstract:

This article briely overflow around the annotations on the Mu'allaqate, indicating the history of their beginnings, without neglecting the transmission of a few shots of Ibn Al-Anbārī's explanation, managing to combine theorising and practice, though he began with a definition of the annotations and then accessed the history of their explanation exposing some of their names, then made an approach to the reader of the category of scientific explainers (linguists), then he moved to Ibn Al-Anbārī's explanations with the presentation of applied examples that guide and enlighten the reader with this important explanation under two main headings: the semantic space and the linguistic construction space, from which secondary headings are branched, in order to facilitate access to the meaning and the structure. The article consists of a brief view that lacks detail and briefing, as it is intended to illuminate a side in the ancient Arabic criticism that the elite of researchers in the field of literature and

* د. بن بكريتي آلاء فاطمة الزهراء

human sciences, students and teachers must refer to it in order to reveal authenticity and dependency, tradition and innovation, retrieval and repetition.

Keywords: Commentaries; Mu'allaqat; History; Ibn al-Anbari; Semantic space.

1. مقدمة:

تُعَدُّ المعلقات من أرقى النصوص الشعرية في الأدب العربي القديم، فهي مرآة صافية لحياة العرب في العصر الجاهلي، وعنوان لبلاغتهم وفصاحتهم، إذ جمع الشعر فيها بين جمال الشكل وروعة المعنى، وتفجّر فيها لُباب اللغة العربية وفصاحتها. وقد استحوذت هذه القصائد على اهتمام العرب منذ ظهورها، فنوّعوا تسمياتها، وحرصوا على حفظها ونقلها عبر الأجيال، حتى بلغت أسماع العالم، فتبوّأت مكانة مرموقة بين كنوز التراث العربي. كما أضحى شرحها وتفسيرها من أهم الأعمال العلمية التي اهتم بها علماء اللغة والنقاد على مر القرون، لما حوته من قيم لغوية وأدبية وحضارية عميقة.

وقد ارتبطت بدايات شرح المعلقات بتفاعل الشاعر وجمهوره، وكذلك بالرواة واللغويين الذين سعوا إلى توثيق هذه النصوص والحفاظ عليها من الضياع، مع التركيز على الجوانب الدلالية والبنوية للقصائد. وقد أسهم كل من الأصمعي، وأبو سعيد الضير، وابن السكيت، وأبو عمرو الشيباني، وأبي بكر الأنباري، وغيرهم في رسم معالم هذا الشرح، كل بحسب منهجيته وأسلوبه، ما أتاح للقارئ فهم اللغة، ودلالات المفردات، وتركيب الأبيات، إضافة إلى إبراز القيم الثقافية والاجتماعية المرتبطة بها. ومن هذا المنطلق، يقدم المقال دراسة تحليلية لشرح المعلقات، مع التركيز على نموذج شرح أبي بكر الأنباري، مستعرضاً فضاء الدلالة والبنية اللغوية، وأثر ذلك في إثراء الفهم النقدي للشعر العربي القديم.

2. المعلقات النصّ مدار الشرح:

بَقْدَمِ مَجْدٍ رَكِينٍ، ظل الشعر العربي اللُّبابُ الفدّ من حياة أمة فدّة، يُعَدُّ العمدّة التاريخية العربية الأولى في تصوير حياة العرب في ذلك العهد تصويرًا مباشرًا. فإذا قارناه بالتاريخ العام، وجدنا أنه متوافق معه، وإذا نظرنا إليه من منظور النقد اللغوي، كان مطابقًا له، وكذلك إذا عُرض على تاريخ الحضارة، فقد استجاب له أيضًا¹، وإنسان عَيْنِ هذا الشعر المعلقات. إنها قصائدٌ جزلة مُحْكَمَةٌ مائعة صدح بها بعض الشعراء، فشَدَّتْ بها العرب على مَرِّ العصور حتى أسمعته الدنيا، ولشغفهم بها نَوَّعُوا أسماءها، فهي² المعلقات، والمذهّبات، والمشهورات، والسَّبْعِيَّات، والسبع الطوال، والسبع الجاهليات، والسُّمُوط، رواها كثيرون منهم: الأصمعي، وحمّاد، وأبو جعفر الشيباني وغيرهم.

اكتنزت قِيمًا رفيعةً في هيكل شعري متناهٍ في التناسق والانسجام والتلاحم جمع الكمال، بما أنها رافقت إلى بهاء الشكل وروعته، عمق المعنى وورصاته، فما كان إلا أن تسامت على لِدَاتِهَا من القصائد العربية، إذ برزت فأدهشت، ومُتعت فأعجبت، ودُرست فأُتعبت، ثم إنها نُقِدَتْ وفُسِّرَتْ وبُيِّنَتْ.. فأبهرت، حتى دِينَ لها بأن ملكت المقام السامق بأحقية وعن جدارة. قد أتحفت السامعين بجرسها، وأطربتهم بوقعها، أعجبتهم بمضمونها،

وسحرتهم بأبياتها، غمضت عليهم في بعض مناحيها، فنهضت عارفاتُ النُّهى إلى تجليتها، وشمخت عباراتها على العقول فتسابقت إليها شخوصٌ مُترَعَةٌ علماً بالعربية فقرَّبَتْها وأدْنَتْ منها، واستغلقت بعض تركيباتها وأشكلت فتصدَّى لبياتها العارفون بخَلْجاتها وسكَّناها، بهمساتها وقعقتها. إلى كلِّ هذا وبكلِّ ذا، قام الشَّرْح تصنيفاً وتحبيراً وإنشاءً وتألِيفاً، فتبوَّؤا عملاً جليلاً وقدَّموا صنعا جميلاً، نختصره فنسمِّيه الشَّرْح. ما فتئ يكونُ وجهةً وملاذاً لمن رام من الملاحظات قُرْباً، ونهج إليها السبيل يبتغي معرفة وفهماً.

3. بدايات شرح الملاحظات:

قبل الحديث عن بدايات الشرح لشعر الملاحظات لا بأس أن نقف عند قضية أخرى ذات صلة بها، هي بدايات شرح الشعر العربي القديم في عمومهِ. في هذا الشأن سنقف عند نظرتين. الأولى ترى في الشاعر الجاهلي أوَّل شارحٍ للشعر مع روايته، كما ترى في النوادي والمنافسات الشعرية التي كانت تجري في الأسواق ومنها سوق عكاظ الربوة الخصبة التي كانت تلقى فيها الأشعار مع الشرح والآراء النقدية، لقد حافظت بعض الشواهد على ما وصل إلينا، حيث رواها الرواة في صورة أسئلة موجهة إلى الشاعر للاستفسار، وغالبيتها كانت تتعلق بتركيب الجملة أو الصورة الفنية، مما يؤكد قدمها. فمعاصر الشاعر يفهم مفردات بيئته، لكن قد يختلط عليه المعنى بسبب الصورة أو التركيب الذي اختاره الشاعر. وهذا يظهر جلياً في الملاحظات التي وصلتنا من العصر الجاهلي وصدر الإسلام...³. وقد ذكر سليمان الشطبي عقب ذلك خبرين، الأوَّل سؤال من عمّة امرئ القيس إلى الشاعر فيجيبيها عن معنى قوله (كَرَّكَ لَأَمِينٍ). الثاني استفسار من الراوية عبيد إلى الأعشى فيجيبيهِ عن مراده من البيت المستفسر عنه⁴. بهذين الخبرين يُدَلِّل على أنَّ شرح الشعر موغل في العصر الجاهلي وليس وليد القرون الهجرية لأوَّل. وكان صادراً ابتداءً من الشعراء أنفسهم. وكذلك كان صادراً من رواة الشعراء الجاهليين، ومع ذلك، نجد أن بعض الرواة كانوا يقدِّمون إشارات خاصة لتوضيح مقاصد الشاعر أو لتقويم شعره، على نحوٍ يشبه ما كان يجري في المنتديات الأدبية التي تمثَّلت في أسواق العرب مثل سوق عكاظ، والمجنة، وذو المجاز وغيرها⁵. والواقع التاريخي المدوَّن في هذا الموضوع تحفظه لنا العديد من مصادر الأدب والشعر مثل البيان والتبيين، وطبقات فحول الشعراء، والشعر والشعراء، والكامل، والأُمالي، والعقد الفريد ومؤلفات أخرى في النقد.

وهناك نظرة ثانية ترى أنَّ المرحلة الأولى من شرح الشعر ارتبطت باللغويين والرواة أولئك الذين دفعهم هاجس الجمع خلال القرن الثاني وأوائل القرن الثالث كانت بدايات الشروح لديهم ذات طابع توثيقي، حيث ركَّزوا على حفظ اللغة وما فيها من غريب، والعادات والتقاليد، وأيام العرب، والنصوص الأدبية والنقدية التي كادت أن تندثر. ولولا جهود رواة أمثال المفضل الضبي (ت 168 هـ)، وأبي عبيدة (ت 210 هـ)، والأصمعي (ت 213 هـ)، لما تمكَّن من البقاء ما كان مقدراً له من عيون الشعر العربي القديم⁶. هكذا يتَّضح أن بدايات شرح الشعر الأولى تقاسمها الشاعر العربي القديم وروايته. ومع بزوغ القرن الأوَّل والثاني حمل عبء الرواة وعددهم

غير يسير، فإلى جانب الثلاثة المذكورين آنفا هناك أبو عمرو بن العلاء، خلف الأحمر، حماد الراوية، الطوسي، السجستاني، ابن عربي ...

أمّا بدايات شروح المعلقات فالتاريخ لازال يحفظ المجهودات الأولى، التي تعدّ بمثابة البذور التي أُلقيت بعناية وحیطة، فكان لها فضل الإثارة والدفع لإنتاج مماثل لها، أو خير منها. وذلك باتّخاذها قاعدة ركنية يُطلق منها ويُستضاء بمضامينها وأشكالها. وعندما نتحدّث عن البدايات المتعلّقة بشروح الشعر الواردة في المعلقات فإنّما نقصد تلك الشروح المؤلّفة بما فيها شرح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (328هـ) المعنون بـ (شرح القصائد السبع الجاهليات)⁷، أي تلك التي احتضنها القرن الثالث الهجري وبدايته. وهنا لا بدّ من التفريق بين عملية الشرح لعلماء ورواة عاشوا القرن الأوّل والثاني كانت مصاحبة لعملية الجمع والتمحيص، والرواية والحمل. وعملية أخرى متخصصة فقط في الشرح. ومن أجل تجلية هذه المحطّات الأولى في مسيرة الشروح الشعرية انكشفت لنا كوكبة من الشروح الأولى موثّقة بأصحابها مع تاريخ وفاتهم.

ليس هناك دراسات وأعمال خاصّة تؤرّخ للأعلام التي قدّمت شروحا مفردة بالمعلقات في بداياتها أو مرحلة ما بعد البدايات، لكن مع هذا الفراغ الذي تترتّب عنه عدّة نقائص وسلبيات، سعت بعض الأقلام الجادّة في دراسات مختلفة لها ذات صلة بالشروح للمعلقات وغيرها من المنتخبات والدواوين إلى جانب التأريخ لهذه الشروح بأشكال متعدّدة ومتفاوتة. وهذا يعدّ منها إسهاما ذا قيمة كبيرة في سبيل تاريخ موضوعي ودقيق للشروح ومنها شروح المعلقات. من هذه الأقلام التي اطّلعنا عليها متناولةً رصد بدايات الشروح، نذكر: محمد حسين آل ياسين، محمد خطّاب، وسليمان الشطي، ويحيى فرغل عبد المحسن وآخرين. وبعد مطالعات متكرّرة لبحوثهم خلصنا إلى القائمة التالية من الشّراح:

- الأصمعي: عبد الله بن قريب أبو سعيد (216هـ)، شرح "القصائد الست"، وهناك من يقدّمه بعنوان كتاب القصائد الست". وقد وصلنا شرحه من خلال اختيار الشنتمري (476هـ) لشعراء الشعراء الستة.⁸، وهذا الذي أشار إليه الشارح الأندلسي الشنتمريّ يتفق بما أورده أبو بكر الأنباري وهو يشرح البيت الثالث والثلاثين من معلقة امرئ القيس:

وجيد كجيد الرّيم ليس بفاحشٍ ... إذا هي نصّته ولا بمعطلٍ (

"... وقال السجستاني: وجدت في كتاب الأصمعي بخطّه: الجيد اسم يقع على جميع العنق"⁹.

والأصمعي بشرحه هذا ليس غريبا - كما يعتقد البعض من غير العارفين بسيرته العلمية - عن عالم الشعر تأريخا، جمعا واختيارا، رواية، وشرحا. وكتبه المطبوعة: الأصمعيات، فحولة الشعراء، شرح ديوان طفيل الغنوي، دليل قوي على ذلك، وما ورد اسمه في مختلف الشروح قرينة أخرى تعضد ما وضّحناه. ومن آثاره اللغوية المطبوعة: كتاب الأمثال، كتاب الاشتقاق، ورسالتان في اللغة¹⁰. وقد كتبت كتب عدّة، وحرّرت مقالات كثيرة حول ما أثر عن الأصمعي في مؤلّفاته في النواحي الصوتية والنحوية والمعجمية واللغوية وتفسير القرآن وإعرابه.

- أبو سعيد الضّبر: (253هـ) عنوان مؤلفه "شرح المعلقات السبع"¹¹. وأورده سليمان الشّطيّ بالعنوان التالي: " شرح القصائد السبع". وهذا الأخير من الدّارسين النّادرين الذين بسطوا القول حول شرح أبي سعيد الضّبر. إذ استغرق صفحات عديدة في توثيق نسخة الشرح، وبعد ذلك عرض نصوصاً من شرح أبي سعيد جليّ فيها طريقة شرحه شكلاً ومضموناً ووضّح منهجيته التي اصطبغ بها شرحه، كما ذكر للقارئ بعضاً من مؤلفاته¹².
- ابن السكّيت: (244هـ) شرح المعلقات¹³. شرح ديوان طرفة، شرح ديواني الأعشى وزهير، شرح ديوان النابغة، كتاب معاني الشعر الكبير، وكتاب معاني الشعر الصغير¹⁴.
- ابن كيسان: (299هـ) شرح القصائد السبع¹⁵. وهو عالم جمع بين الرواية والشرح وعلوم اللغة.
- أبو عمرو الشيباني: (206هـ) شرح المعلقات التسع. الفضل في إخراج هذا الشرح إلى الحياة، وإبلاغ القراء المتخصّصين به يرجع إلى المحقّق عبد المجيد دمو. وقد لاحظنا أنّ الكتب التي اطلعنا عليها في تأريخها لبدايات شرح المعلقات لم تذكر ولم تشر إلى هذا الشارح ولا إلى شرحه. عثر على مخطوطة الشرح في مكتبة الأسد بدمشق. وما نسجله للمحقّق فضلاً على إمطة النسيان والغفلة عن شرح أبي عمرو الشيباني أنّه لم يقف عند حدود التحقيق وضوابطه، بل كان شارحاً ثانياً للمعلقات، وقد ميّز شرحه عن الشرح الأساس بوضعه في الهامش. وكان تركيزه الكبير في الشرح على الجانب الدلالي للمعلقات، يبيّن معاني الكلمات، ويفسّر دلالات الأبيات الشعرية¹⁶.
- أبو بكر محمّد بن القاسم الأنباري: (328هـ) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات. وهذا الشرح سيكون النموذج الذي سنتناوله بالدراسة والتحليل لاحقاً. وهؤلاء هم أصحاب الفضل في التأسيس لبدايات شروح المعلقات. هذا عن البدايات التاريخية لشرح المعلقات.

4. الشروح في حوزة علماء اللغة:

بمجرّد مطالعة أسماء الشّراح الذين صنّفوا كتباً تعدّ أولى مدوّنات شروح الشعر، وأسماء الذين تابعوهم في مساهمهم التّأليفي الشّارح ذاك، نبصّرهم انبروا صوب صعيد واحد وتحدّقوا فيه، إنهم كلّهم من علماء اللغة، أو بعبارة أخرى هم لغويون في انتمائهم العلمي، ولعل بعض الدّلالات التي نخلص إليها باجتماعهم في دائرة اللغة تلك، أنّهم وبِحُكم حدّ قهّم بها في مختلف جزئياتها، تمكّنوا من النفاذ إلى ذاك البناء المهيب الذي أعيا كثيرين في طرّقه، فولج اللغويون من مصاريح شتّى استعصت على غيرهم، وبرعوا في إتقان علوم المعجم والصوت والنحو والصرف وغيرها. إن الشعر في تركيبته الأولى حروفٌ تؤلّف كلماتٍ، والكلمات بدورها تُشكّل أنماطاً لغوية متعددة، تتغير في نسجها من معلقة إلى معلقة ومن قصيدة إلى أخرى، والنظم في شكله الخارجي يتمنّع، لكن العارفين (اللغويين) بموضع دخوله تصدّروه، فتغلغلوا في أرجائه، وتمكّنوا من باحاته، وملكوا قيادته لأنهم أجادوا معرفةً بالّلغة مركّبة الأول والرئيس، فتنقلوا بين جنباته، يرتعون في ظلاله، ويجنون جيئ دانٍ، ليس يبعد عنهم،

يقدمونه على مدبجاتٍ متقنة، فهم قد شرّحوه وفسّروه وبيّنوه وأظهروه في معجمه ومعانيه، في عروضه وصوتياته، في نحوه وصرفه، في بلاغته وبيانه وبيديعه، كيما يفهمه عموم المتلقين الشغوفين به.

5. قراءة في شرح ابن الأنباري:

بعد أن انبرينا في الصفحات السابقة حول بدايات شروح المعلقات، اخترنا نموذجاً من الشروح المقدمة آنفاً ممثلاً لأبي بكر محمد ابن الأنباري (الابن)، والذي يحمل العنوان التالي: (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات). وقد حملنا على اختياره نموذجاً للدراسة مجموعة من العوامل نذكر منها: اعتناء ابن الأنباري بكافة المكونات النصية الذي يحتويها النص الشعري المشروح، عدم إغفاله للجانب التاريخي والروائي، استناده في مختلف فروع شرحه على طائفة جليلة من الرواة وعلماء اللغة، إلى جانب عوامل أخرى. دراسة النموذج في مقال لا يمكن لها أن تأتي على كلّ القضايا المطروحة في الشرح، لكن سترصد البعض منها فاتحين المجال للمتلقين كي يبحثوا عنها في قراءات مباشرة للشرح، أو في قراءات وسيطة لنقاد مهتمين بشأن الشروح الشعرية. سنقتصر في هذه القراءة القصيرة على عنصرين بارزين هما فضاء الدلالة وفضاء البناء اللغوي.

1.5 فضاء الدلالة:

أ - دلالة¹⁷ اللفظة:

غني ابن الأنباري في شرحه للمعلقات بأحوال وتقلّبات الكلمة المفردة بوصفها عنصراً من عناصر تكوين البيت في القصيدة بكتّيتها، فحفل بإظهار دلالاتها على تنوع في الحقول المعرفية المتصلة بعلوم العربية، فطرق أبواب الترادف والتضاد وغيرها، وتأسيساً على ما تقدم سيحاول المقال تقديم بعض النماذج وهنا نتبّع كلمة الجون وطرائق معالجتها في هذه المدونة، فقد أتى ابن الأنباري على شرحها في معلقة عمرو بن كلثوم لما ذكرها في بيته واصفاً أثرها

"إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الْأَبْطَالِ يَوْمًا رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُوناً

... و(الجون): السُّود. يقول: إذا وُضعت الدروع عن الأبطال يوماً رأيت جلودهم سوداً من صدأ الحديد.¹⁸ ، والملاحظ أن الشارح لم يلفت إلى أنها من الأضداد كما أنه لم يُلحَح، واقتصر على بيان دلالتها الواضحة التي تحكّم فيها السياق بشكل جليّ (الجون: السود)، فخضع الشرح ودان لطبيعة الصياغة التي ستسير بالمعنى في مضمّار واحد لا يقبل أن تُحمّله دلالات أخرى يأبها النظام التعبيري ويفرضها العقل المدرك لبديهيات الأمور، فهل يستقيم القول من الشارح في هذا الموضع أن يتحدّث عن الأضداد ويشير إلى أن المعنى يحتمل السواد والبياض؟ والعرف البشري لا يماري في تأثير بعض المواد في الجلد ومنها مادة الحديد وما شاكله التي تُصنع منه الدروع، فيتوقّى بها المحارب ضربات المقاتلين. لقد أذعن الشارح للعقل مع حسن نظره في اللغة فكفل التواؤم المنطقي لشرحه، وخصّ الكلمة بالدلالة على الأسود. وكشف عن فضاء دلالي خصب في نطاق الكلمة المفردة المتصلة بالسياق العام الذي لا يمكن التغافل عنه. لعل الشارح هنا يريد أن يروّض ذهنياً البحث الدلالي على

السير في نطاق ما يوجّهه سياق ورود الكلمة، وأيضاً سياق شرحها، وكأنهما خطّان متساوقان في توازٍ وثباتٍ، أولى أولوياته احترام ومراعاة أسلوب العقل في التفكير المنطقي الباحث عن الدلالة. وهذا ما يحثُّنا إلى السعي نحو اكتشاف دلالات جديدة تتعلق بدوائر أخرى اختصّت بالعناية بالجملة والصدر والعجز والبيت الشعري.

ب - دلالة البيت ومكوّناته:

لم يقتصر ابن الأنباري في تفسيره للغة الشعرية على المفردات المعجمية يفسّر معانيها القريبة والبعيدة، ويبسط دلالاتها المتعدّدة والمتباينة، بل جعل ذلك في العديد من المواطن مطيّة لاستبطان معاني ودلالات البيت الشعري في أجزائه من جملة وصدر وعجز، وفي كليّته. وهذا ما سنسعى لبيان بعض نماذجه.

- شرح دلالة الجملة من البيت:

في البيت السابع من معلقة الحارث بن حلزة:

"أَوْقَدَتْهَا بَيْنَ الْعَقِيقِ فَشَخَّصِيْ - مِنْ بَعْدِ كَمَا يَلُوحُ الضِّيَاءُ

... قوله (أَوْقَدَتْهَا بَيْنَ الْعَقِيقِ)، عني أنه رأى النار في العلياء ولم يعرف موقعها بالضبط، حتى تمعن فيها فعلم أنها كانت بين العقيق.¹⁹ في هذا الموضع مثلاً يربطنا الشارح بالبيت السابق وهو يقدّم معنى جملة (أَوْقَدَتْهَا بَيْنَ الْعَقِيقِ) من صدر البيت الأنف الذكر، فيرشدنا من خلال شرحه هنا إلى ضرورة ربط البيت المعني بالشرح بما قبله وما بعده، فالسياق الذي سبق والسياق الذي تلا ساعداً الشارح في الوصول إلى قوله (معناه رأى النار بالعلياء ولم يدر أين موضعها من العلياء، حتى تأمّلها فعلم أين هي من العلياء) إذ ليس في البيت من قرائن توحى بذلك غير قول الشاعر في البيت السابق (تُلَوِي بِهَا الْعِلْيَاءُ) والعلياء مكان رحب، بعد أن أضاءت المرأة المكان عليه، تأمّلّه فخلص إلى أنها -موجودة- بين مكانين اثنين، بين العقيق وشخصين، والقرينة الثانية على أنه استخلص معنى (تأمل الشاعر) من البيت الموالي قول الشارح (التنوّر: نظرك إلى النار وتأملك أين هي؟ قريبة كانت أم بعيدة) فالتنور: النظر والتأمل

فَتَنَوَّرْتُ نَارَهَا مِنْ بَعِيدٍ بِحَزَازٍ هَيْهَاتَ مِنْكَ الصَّبَاؤُ

وبما سبق قدّم الشارح تنويراً يفيد بأن استخراج المعاني والدلالات من الأبيات الشعرية لا بد أن يكون بقرنها إلى بعضها، مع النظر في سابقها وتاليها، من غير فصلها أو وقطع أواصر لحتمتها وترابطها.

- شرح صدر البيت:

في البيت العشرين من معلقة عمرو بن كلثوم

"وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٌّ طَوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا

معناه: ورُبَّ أيامٍ لنا بيضٍ مشهورة²⁰، وكان الشارح هنا حين يلفتنا إلى حذف أداة القسم، يفتح المجال للقرائ أمّام واكفِ الدلالات التي تنبثق بسببٍ من التركيب النحوي الوارد وهو الحذف، فالشاعر لاعتزازه بتلك الأيام الخاليات، يقرّبها ويحذف أداة القسم وكأنه يمنع عنه أي كلمة تُبعده عن أيام البطولة والشجاعة والمجد،

ويختصر أي مسافة تنأى بها عنها وهو في معرض الفخر، ثم إنه يصفها بـ (طَوَالٍ) لأنه يريد بها أن تدوم وتبقى وهي (مشهورة) بحسب الشارح الذي دللنا على دلالة أخرى وهي ذبوع صيتها، وسعة سُمعتها بين الناس.

- شرح دلالات عجز البيت:

في البيت العاشر من معلقة امرئ القيس:

"أَلَا رَبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ وَلَا سَيِّمًا يَوْمًا بِدَارَةِ جُلْجُلٍ

... وقوله: (وَلَا سَيِّمًا يَوْمًا بِدَارَةِ جُلْجُلٍ) معناه التعجب من فضل هذا اليوم، أي أنه يوم أفضل من سائر الأيام²¹، إن الشارح في هذا الموضع يرقى بذوقه الشارح وحسبته التعليمي، فيأتي بوصفٍ عفيفٍ لدلالات البيت من مباهاة وتفخر بحياة الطيش والمجون والعريضة التي كان الشاعر غارقا فيها، فلم يأت بما يחדش الذوق العام، وإنما تحوّل إلى التنبيه على معنى التعجب الذي يحمله البيت، وكأن الشارح يريد من المتلقي استخلاص تعجب آخر يجري في اتجاه معاكس لما أراد له الشاعر، فيدفع المتلقي إلى التعجب من المجاهرة بذكر الأفعال القبيحة فضلا عن التبجح والاعتزاز بها، وحينها سيتساءل القارئ معجبا بعد إن استنهض الشارح فيه روح الغيرة والشهامة: كيف يفضل هذا اليوم بلهوه ومجونه الأيام الأخرى؟ هل من الممكن أن يتأتى التفاضل بالانحطاط الأخلاقي والخلاعة؟ نعم إن الشارح يدعو من خلال هذا البيت إلى اجتناب القبيح مع غض الطرف عنه، بذكره أسلوب التعجب، وهل سيسير بنا ذكر التعجب إلا إلى التعجب من تحول الفساد إلى صلاح، وتبدل الرذيلة إلى فضيلة!

شرح دلالة البيت كله:

في البيت الحادي والأربعين من معلقة طرفة بن العبد

"إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنِّي غُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ

معناه: إذا قالوا: من فتى لأمر عظيم ظننتني غنيت بذلك الأمر²²، في هذا البيت أيضا يمددنا الشارح بطرف الخيط في إيجاز ودقة، فيفتح أمامنا الباب للولوج في عالم من الدلالات المتعددة التي تكتنف قوله (أمر عظيم) فأَيّ الأمور العظيمة يا ثرى يقصدها الشارح: هل هو غوث الملهوف، أم هو طلب النجدة، أم إنه إكرام الضيف، أم لعلها المسارعة في الذب عن العرض، أم الدفع عن حياض القبيلة، أم المشورة برأي حكيم، أم المشاركة في عونٍ ضعيف... كل هذه وغيرها تتدافع في خلدنا، يا ثراه أيّها يقصد الشاعر؟ وإلى من منها يرمي الشارح بقوله (أمر عظيم)؟ ثم إن الشارح في تقديمه معنى البيت ظل محتفظا بكلمة (فتى) ولم يستبدلها بكلمة (رجل أو شهم أو بطل...) مع أنها لا تُحدث الخلل في الوزن العروضي، وإنما كرّرها وأبقى عليها دلالة منه على الفتوة ومقتضياتها بما يرتسم في الأذهان من معانيها، وبما تحفظ النفوس لها من مقام رفيع سامٍ، وزاد تنكيرُ الكلمة (فتى) من إطلاق العموم مع الاسترسال فيه على معانيها الفاضلة التي تدعو لها. كما أن فتحها بتنوينٍ يضاعف فيها فتح مسارب من دلالات ومعاني الكلمة التي تمسك الشارح أيضا بإبقاء التنوين عطفًا على إبقائه على التنكير في انسجامٍ متناهٍ بين البيت وشرحه، هل كان الشرح إلا بسبب من البيت؟ وهل انطلاق الدلالات وتحريرها ممكن من غير الاعتماد على البيت؟

هذه نماذج من شرح ابن الأنباري لدلالات البيت الشعري وأقسامه. نفهم من خلالها أنّ الفهم الشامل للبيت ينبغي أن يتحقق بشرح معنى اللفظ المعجمي، ومعاني البيت في كليته أو أجزائه. وقد لاحظنا أنّ ابن الأنباري كان يتجاوز في بعض المواقع الشرحية شرح دلالات المفردات، كما كان يتخطّى الوقوف عند دلالات الجملة أو الصدر أو العجز أو البيت في مواقع أخرى.

2.5 فضاء البناء اللغوي:

أ - البناء النحوي:

إذا كان البناء النحوي في شُغله الأول يقوم على تبليغ المعاني الصحيحة، فهو لا جرم أصونٌ للدلالات في معانيها الرحبة، لأنّ المُنطلق القويم يُفضي حتماً إلى ما هو أقوم وأسلم، وعلى هذا سنتابع شيئاً من الشرح النحوي لدى ابن الأنباري، والنموذج في البيت السادس والأربعين من معلقة امرئ القيس:

"أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا إِنِّجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمْتَلٍ

... وألّا هو افتتاح الكلام، وكلمة أَيُّهَا مرتفعة لأنها منادى مفرد، والليل مرتفع تابع لها، فالأصل فيها: أَلَا، أَيُّ هو هذا الليل، والطويل نعت يصف الليل²³، إن في هذا البناء النحوي الذي قدّمه ابن الأنباري فضاء من اللوعة والأسى يحثم على الشاعر بل ويُطبّق عليه، ومن عجبٍ أن يتحول الفضاء المعروف برحابته إلى ضيق خائق يحبس الأنفاس، وتوظيف (أَلَا) في بيت الشاعر يراها ابن الأنباري انبثاقاً يبيّ عبء الشاعر حالة الاحتباس التي يعيشها، ولم لا فالشاعر ينادي (الليل) الذي ارتفع باسطاً سطوته وظلمته في امتداد دهم، ولأنه يحاصر الشاعر ويَطْوِقُه تحوّلت العبارة التي هي الأصل الرحب المنبسط الممتد (أَلَا أَيُّ هو هذا الليل) إلى الضيق والقلّة في (أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ) ويتحوّل الشاعر من (هو) إلى (ها) فالأولى لا تُعبّر عن وضعية الاحتجاز والتطويق، بقدر ما تقوم الهاء المرفقة بالمدّ (ها) بتصوير نفسية مأسورة تُطلق تهديداً وهي تتوسّم انطلاقاً للروح عساه.. وقد أسهمت التهنيدات في (ها) في بعض انفراج، على إثره يمتشق الشاعر شيئاً من الجرأة فيخاطب الليل مباشرة بعد أن يحذف (هذا)، إنه لا يُشير إليه إنه يواجهه وحده، وفي جسارة يتابع وصفه بـ (الطويل) إنه يسعى إلى قلب المشهد من فضاء تطاول الليل البهيم بأسوداده ومواجهه إلى فضاءٍ مشرقٍ لصبحٍ مشعٍّ متألّئ الأنوار.

ب - البناء الصرفي:

يكاد يكون رديفاً للنحو، لم يُغفل ابن الأنباري في شرحه فأتى على ذكره في عدة مواطن منها ما كان في شرحه البيت السادس من معلقة ليبيد بن ربيعة ("الجلّهتّان"): جبهتا الوادي،... وجمعه جِلَاةٌ وِجْلَهَاتٌ²⁴، ينقلنا ابن الأنباري بعرضه لجمع كلمة (الجلّهتّان)، (جِلَاةٌ وِجْلَهَاتٌ) إلى فضاء مائع يضمّ في رحابه جمعا يتقاسمه جانباً الوادي من ظباء ونعام، إن الشارح يرسم لوحة فسيفسائية يتشاطر ألوانها النّضرة مع شعراء المعلقات، ويتنقّل بين زواياها في دقة متناهية، وعلمية متقنة، فمن شرحه لكلمة (الجلّهتّان) يكفيه بيانٌ معناه (جبهتا الوادي)، لكن النظر الفاحص العميق في تركيبة البيت استدعت لديه - أثناء الشرح - لزوم ذكره صيغتي الجمع (جِلَاةٌ وِجْلَهَاتٌ)

في كلمتين اثنتين يتساقق بهما مع النوعين (الطبء والنعام) اللذين أتى على وصفهما الشاعر، ليسمح ابن الأنباري بعدها للقارئ بأن يسرح عبر البناء الصرفي تطوفاً مع هذا الجمع (جِلاؤه وجَلَّهاتُ) في فضاء البيت المعلقاتي بظبائه ونعامه على عُدوتي الوادي.

ت - البناء الفقه لغوي:

عالج ابن الأنباري قضايا لغوية عديدة ضمن شرحه العام، يمكن إدراجها في باب فقه اللغة، هذه المسائل اللغوية مضى يتابع أبنتها ويبحث في حقولها ومعانيها، بعيداً عن الطابع النظري، مركّزاً عليها تطبيقاً في المعلقات، والمتابع لهذا الجزء اللغوي من الشرح سيرصد قضايا من مثل الترادف والتضاد والمشارك اللفظي استكشافاً من أشعار المعلقات، يمكن أن يطوّرها باحث ما إلى مقال آخر أو دراسة خاصة. وحسبنا في هذا المقال أن نستأنس بعرض نموذج من هذا المجال الشرحي ذي الصبغة الفقه لغوية، استقدمه ابن الأنباري في شرحه المعلقات، ومن ذلك ما كان في البيت الرابع عشر من معلقة عمرو بن كلثوم:

"وَأَعْرَضَتِ الْيَمَامَةُ وَاشْتَمَحَرَّتْ
كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِي مُصَلِّتِينَ

(أعرضت اليمامة) معناه ظهرت وبدت، أي لمع بها السراب... والعرض: ربح الرجل الطيبة أو الحبيثة، والعرض: موضع المدح أو الذم من الإنسان... والعرض: ناحية الوادي²⁵ وتحديدًا في كلمة (أعرضت)، فبعد أن أتى بمردفاتهما (ظهرت/ بدت/ لمع بها السراب)، يزيد شرحاً استباقياً يهيئ به المتلقي فيعين كلمة أخرى تشترك مع (أعرضت) في الجذر اللغوي هي (العرض) ثم يأتي بمشتركاتهما اللفظية، فهي كلمة تجمع عدداً من المعاني المختلفة (ربح الرجل الطيبة أو الحبيثة/ موضع المدح أو الذم من الإنسان/ ناحية الوادي) إنها لفظة شارحة مواكبة لنمط القصيدة المتعارك بين ضدين لا يجتمعان، ولئن ترادف الشاعر وتماهى مع قرى وديار، فإنه لا يبرح يخاصم فرقاه ويتباين معهم تباين الريح الطيبة والريح الحبيثة، وتغاير مواطن المدح والذم، وجانب الوادي الذي يستلزم ضفة أخرى مقابلة له، وبعد هذا البسط يتبادر إلى الأذهان وبقوة السؤال: هل كان الشارح يتعمّد بهذا الشرح على تلکم الشاكلة التي سلف بياها مسامرة المعلقات في دقيقات الأمور تلك؟

6. خاتمة:

هذه بعض الجوانب عرضناها من شرح أبي بكر عرضنا فيها للقارئ الجانب الدلالي بعناصره الأربعة، والجانب المتعلق بالبناء اللغوي بعناصره الثلاثة. هذه ليست كلّ الجوانب وإتّما بعض منها، فقراءتنا تأسّست على الاختيار الذي أملت طبعه المقال، وتحتاج باقي المكونات الشرحية إلى أكثر من مقال. إنّ شرحاً على هذا النحو من الشمول والبناء المؤسّس وظائفه فوق العدّ، وفوائده لا يمكن حصرها. يريّ الذوق الجمالي، وينمّي الحسّ النقدي، ويبعث على تقدير الكلام قبل تفسيره وتشرّجه، يعلم ويتقّف، يوجّه ويقوم.

7. الهوامش:

- ¹ - ينظر، نجيب محمد البهيبي، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، د.ط، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة: 1950م، ص 46.
- ² - ينظر، بدوي طبانة، معلقات العرب، ط.1، مكتبة الأنجلو المصرية- مطبعة الرسالة، القاهرة: 1378هـ-1958م، ص 18.
- ³ - ينظر، سليمان الشطّي، المعلقات في عيون العصور، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: 1432هـ - 2011م، ص 42.
- ⁴ - ينظر، المرجع نفسه، ص ص 42-43.
- ⁵ - ينظر، عبد الله عبد الرحيم عسيلان، حماسة أبي تمام وشروحه دراسة وتحليل، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه: 1978، ص 55.
- ⁶ - ينظر، أحمد الوديني، شرح الشعر عند العرب من الأصول على القرن 14هـ/ 20م، دراسة سانكرونية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا: 2009م، ص ص 38-39.
- ⁷ - أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، د.ط، تح: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة: د.ت.
- ⁸ - ينظر، يحيى فرغل المحسن فرغلي، شروح المعلقات والعلاقة بين التراكيب والدلالة، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين الإمارات العربية المتحدة: 1425هـ - 2004م، ص 36.
- ⁹ - محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص 61.
- ¹⁰ - ينظر، عبد الجبار الجومرد، الأصمعي حياته وآثاره، مطابع دار الكشف، بيروت: 1955. من ص 243 إلى ص 322. وينظر، ناصر توفيق الجباعي، الأصمعي ناقدا للشعر، ط1، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي.
- ¹¹ - شروح المعلقات والعلاقة بين التراكيب والدلالة، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 1425هـ - 2004م، ص 28.
- ¹² - ينظر، سليمان الشطّي، المعلقات في عيون العصور، من ص 45 إلى ص 58. ومن المؤلفات التي ذكرها لأبي سعيد الضير: الردّ على أبي عبيد في غريب الحديث، كتاب الأبيات، المعاني والنوادر، الأمالي.
- ¹³ - محمد بن كيسان، شرح قصيدتي امرئ القيس وطرفة، ط1، تحقيق: محمد حسين آل ياسين. دار عمّار للنشر والتوزيع، عمان الأردن: 1430هـ - 2009م. من مقدّمة المحقّق، ص 17. - ابن النحاس، شرح القصائد التسع المشهورات، تحقيق: محمد خطّاب، دار الحرّية للطباعة، مطبعة الحكومة بغداد، العراق: 1393هـ - 1973م. من مقدّمة المحقّق، ص 51.
- ¹⁴ - سليمان الشطّي، المعلقات في عيون العصور، ص 58.
- ¹⁵ - ابن كيسان، شرح القصائد السبع، تحقيق: محمد حسين آل ياسين، مجلّة مجمع اللغة العربية، دمشق، 1422هـ - 2001م. - ينظر، الدراسة التي قدّمها المحقّق في مستهلّ الشرح، من ص 737 إلى 744. وقد ذكر من مؤلّفاته المطبوعة: تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها، الفرق بين السين والصاد، الموفقي في النحو، شرح معلقة زهير، ص ص 743-744.
- ¹⁶ - أبو عمرو الشيباني، شرح المعلقات التسع ويليّه معلقة الحارث الشكري، ط1، تحقيق: عبد المجيد همّو، مؤسّسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان: 1422هـ - 2001.

- 17- يشير الباحث فايز الداية في كتابه: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، ط.2، دار الفكر، دمشق: 1417هـ - 1996م، ص 10 إلى أثر بالغ لكتب شروح الشعر في المساعدة على بلورة نظرية الدلالة العربية، خصوصا وأنها أدلت بسهم وافر في الجانب التحليلي التطبيقي: "وأذكر أنني إلى استجلاء النظرية الدلالية العربية عند الفلاسفة والمفكرين واللغويين والأدباء قد قمت برصد التطور الدلالي في بيئة غنية بالآثار الدلالية وهي الكتب النقدية والشروح الشعرية، وأدى هذا العمل نتيجة هي: التأكيد على الأهمية العملية والتطبيقية للدلالة"، وفعلا الدلالة نجدها في الألفاظ والأبيات وفي النحو والصرف والبلاغة. والدلالة هنا يفهم منها المعنى أو المفهوم أو المقصود، أو المراد.
- 18- محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص 416.
- 19- ينظر، المصدر نفسه، ص 437-438.
- 20- نفسه، ص 388.
- 21- ينظر، نفسه، ص 32-33.
- 22- محمد بن الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص 183.
- 23- ينظر، المصدر نفسه، ص 77.
- 24- نفسه، ص 525.
- 25- نفسه، ص 383-384.

8. قائمة المراجع:

1. ابن النحاس، شرح القصائد التسع المشهورات، تحقيق: محمد خطاب، (بغداد، العراق: دار الحرّية للطباعة، مطبعة الحكومة 1393هـ - 1973م).
2. ابن كيسان، شرح القصائد السبع، تحقيق: محمد حسين آل ياسين، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، 1422هـ - 2001م.
3. أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، د.ط، تح: عبد السلام هارون، (القاهرة: دار المعارف، د.ت).
4. أبو عمرو الشيباني، شرح المعلقات التسع ويليّه معلقة الحارث اليشكري، ط1، تحقيق: عبد المجيد همّو، (بيروت، لبنان: مؤسسة الأعلى للمطبوعات، 1422هـ - 2001م).
5. أحمد الوديني، شرح الشعر عند العرب من الأصول على القرن 14هـ / 20م، دراسة سانكرونية، ط1، (ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، 2009م).
6. بدوي طبانة، معلقات العرب، ط1، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية- مطبعة الرسالة، 1378هـ - 1958م).
7. سليمان الشطي، المعلقات في عيون العصور، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1432هـ - 2011م).
8. شروح المعلقات والعلاقة بين التراكيب والدلالة، ط1، (الإمارات العربية المتحدة: مركز زايد للتراث والتاريخ، 1425هـ - 2004م).

9. عبد الجبار الجومرد، الأصمعي حياته وآثاره، (بيروت: مطابع دار الكشاف، 1955).
10. عبد الله عبد الرحيم عسيلان، حماسة أبي تمام وشروحها دراسة وتحليل، (دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1978).
11. فايز الداية، علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، ط.2، (دمشق: دار الفكر، 1417هـ - 1996م).
12. محمد بن كيسان، شرح قصيدتي امرئ القيس وطرفة، ط1، تحقيق: محمد حسين آل ياسين، (الأردن: دار عمّار للنشر والتوزيع، عمّان 1430هـ - 2009م).
13. ناصر توفيق الجباعي، الأصمعي ناقدا للشعر، ط1، (أبو ظبي دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث).
14. نجيب محمد البهيقي، تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، د.ط.، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1950م).
15. يحيى فرغل المحسن فرغلي، شروح المعلقات والعلاقة بين التراكيب والدلالة، ط1، (العين، الإمارات العربية المتحدة: مركز زايد للتراث والتاريخ، 1425هـ - 2004م).